تجليات تجربة الشيب
في شعر ابن خفاجة

د. خالد عمر باوزير

2003
١٤٢٤
جامعة الأندلس
للعلوم والتقنية
Alandalus University For Science & Technology

(AUST)

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

تجليات تجربة الشيب في شعر ابن خفاجة

الملخص :

يتناول البحث الكشف عن تجربة الشيب عند الشاعر ابن خفاجة، وهي وإن كانت تجربة إنسانية، لكنها أخذت بعداً ذاتيا ونفسياً عنده، حيث وجدنا جنّان الأندلس المعمِّر، شاعراً شاكياً باكياً قلقاً، يئن تحت وطأة الغربة النفسية، وإشكالية الزمن، والخوف والقلق من شبح الموت الذي يتراءى له في منامه ويقظته.

وقد تكشفت تجربته الشعرية هذه عن: **تجليات موضوعية**؛ دارت حول أربعة انشغالات كانت تسكن نفس الشاعر، وهي الصدمة من ظهور طلائع الشيب، والبكاء على شبابه، وحنينه إليه، والشكوى في كبره وشيخوخته، وانتهاءً باعتباره وزهده. **وتجليات أسلوبية**: توزعت على أربع دوائر؛ في المفارقة الفنية والرمز، وفي المعجم الشعري الشاكي الباكي الحزين. وفي اعتماد الأساليب الإنشائية من استفهام، وتمنٍ، ونداء ممزوج بتفجع وتوجع. ورابعها في هيمنة صيغ الزمن الماضي.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

المقدمة :

يكتسب الشعر وهجاً، وألقاً، حينما تأتي تجاربه صادقة فنياً وعاطفياً، فيشع تأثيرها الإنساني، فتحدث انبعاثاً وانفعالاً أدباً وتلقياً. وتتفاوت هذه التجارب من حيث ملامستها الشعور الجمعي، وإنما ينجح الشاعر فيها حينما يعبر تجربة يتوحد فيها الناس، ويمرون على صراطها.

والتجربة الشعرية هي " الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين « يفكر في أمر من الأمور تفكيرا ينم عن عميق شعوره، والشاعر الحق هو الذي تتضح في نفسه تجربته، ويقف على أجزائها بفكره ويرتبها ترتيبا قبل أن يفكر في الكتابة"[١] .

وتجربة المشيب أو الشيب، إحدى هذه التجارب الإنسانية، والحديث عنها يكاد لايخلو منه ديوان شعري، بل ألف فيه منتخبات ككتاب" الشهاب في الشيب والشباب"[٢]. ولأبي عمر ابن عبد ربه الأندلسي شعر المحصات، قاله في شيخوخته، ناقضاً به كل شعر قاله في شبابه في الغزل والخمر والمجون[٣]. والشيب والمشيب بمعنى واحد، وقال الأصمعي: الشيب بياض الشعر، والمشيب دخول الرجل في حد الشيب من الرجال[٤].

من هنا، تأتي دراستنا هذه لتكشف عن تجربة الشيب عند شاعر أندلسي، عرف عنه في عهد شبيبته لهوه واستمتاعه، كما ارتبط شعره بالطبيعة، فلقب بجنان الأندلس فهو " شاعر الأندلس في وصف الأزهار والأنهار"[٥]، وقد عمر طويلاً، فجعل يئن تحت وطأة كبرته وشيخوخته، فتحدث عنها كثيراً في شعره، مظهراً حنيناً لشبابه الفائت، متألماً من هول شيخوخته، خائفاً من مصيره أن يتخطفه الموت كما تخطف

[١] . النقد الأدبي الحديث .محمد غنيمي هلال ،ط .1 بيروت :دار العودة، 1982 م .ص ٣٨٣.

[٢] .تأليف السيد الشريف المرتضى أبي القاسم علي بن الشريف، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط١، ١٣٠٢هـ

[٣] . المختار من الشعر الأندلسي للدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر .دمشق، ط٣، ١٤١٢هـ./ ١٩٩٢م ص٢٥.

[٤] . الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، مرتب ترتيباً ألفبائيا بحسب أوائل الحروف لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق د. محمد محمد تامر، دار الحديث/ القاهرة، ط١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م. ص٦٢٥، ٦٢٤.

[٥] .".رايات المبرزين وغايات المميزين" لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (٦١٠ . ٦٨٥هـ). حققه وعلق عليه الدكتور محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط١ن ١٩٨٧م. ص٢١٧.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

أصدقاءه شباباً. فعاش شاعرنا ابن خفاجة[٦] هذه التجربة المرّة في نظره، وعبر عنها شعراً، حتى إنها اندمجت بأغراضه الشعرية اندماجاً لا تخطئه العين. وقد سعينا في دراستنا هذه للكشف عن تجليات هذه التجربة، مستقرين ومحللين شعره لاسيما في فترة عمره الثانية وهي الأطول.

وقد جاء البحث في مقدمة وخاتمة ومبحثين:

المبحث الأول: تناولنا فيه تجليات التجربة الخفاجية من حيث مضامينها وموضوعاتها.

المبحث الثاني: ركزنا فيه على التجليات الأسلوبية، التي أناط بها الشاعر ابن خفاجة التعبير أكثر عن تجربته النفسية والوجودية هذه.

الخاتمة: وأودعنا فيها خلاصة نتائج هذه الدراسة. وقد اقتضت الدراسة أن نأخذ منهجياً بإجراء الاستقراء والتحليل للوصول إلى هذه التجليات.

المبحث الأول: تجليات موضوعية في تجربته

خاض ابن خفاجة تجربة الشيب كغيره ممن نسئ لهم في أعمارهم، لكن الخفاجي اضطربت بها نفسه، وعانى مرارة التحول في سنه، لاسيما وقد عاش وحيداً لم يتزوج، وعاين في الآن نفسه فراق أحبته ، وآلمه انقضاء شبابه كلمح البصر أو هو أقرب، فاتجه اتجاهاً مغايراً عما هو عليه في شبابه، من حيث التعاطي مع الأشياء والحياة والرؤى والأفكار، وغدا يفلسف الأشياء، وينظر إليها بحساسية شديدة، فما عادت

[٦] .هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة الهواري، ولد في جزيرة شقر القريبة من بلنسية سنة ٤٥١هـ، وتلقى علومه فيها وفي شاطبة ومرسية، وبرع في العلوم الشرعية واللغة والأدب، ونبغ شاعراً وكاتباً، كان على حال من اليسار سمحت له بأن يصون نفسه عن التكسب، ولم يتعرض لملوك الطوائف، وقد ارتحل إلى عدوة المغرب بعد اجتياح السيد القمبيطور مدينة بلنسية، ثم عاد إليها، ومدح قادة المرابطين لصنيعهم تحرير بلده. عاش ابن خفاجة وحيداً، لم يتزوج، وارتبط بمسقط رأسه ارتباطاً شديداً، وأكب على وصف الطبيعة الأندلسية حتى عرف بجنّان الأندلس. وله مذهب فني عرف بالنزعة الخفاجية، كان مقبلاً على الحياة في شبابه ثم تزهد بعد أن وخطه الشيب، وراعه تقدمه في السن، عمر طويلاً، وبلغ سنه ٨٢ سنة، وقد توفي عام ٥٣٣هـ انظر مصادر ترجمته: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تأليف أبي الفتح بن عبيد الله القيسي الإشبيلي الشهير باين خاقان ت ٥٢٩هـ، حققه وعلق عليه الدكتور حسين يوسف خربوش، عالم الكتب الحديث، ط١، ١٤٣١هـ. ٢٠١٠م. ق٣/ص٧٣٩.." الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت .لبنان، ط١، ١٤١٩هـ /١٩٩٨م، مج ٣/ ص٣٣٤." رايات المبرزين وغايات المميزين" لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (٦١٠ .٦٨٥هـ). حققه وعلق عليه الدكتور محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط١ن ١٩٨٧م. ص٢١٧.." المغرب في حلى مغرب" لابن سعيد المغربي، حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف"، ط٤،ج٣٦٧/٢ .المختار من الشعر الأندلسي ص١١٢.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

الطبيعة التي أسرته بالأمس، مطية لهو أو لعب، إنما غدت نافذة ينفذ بها إلى حقائق الأشياء، فيصطبغ شعره برؤية الاعتبار، وينبث في تضاعيفه هلعه من مصير الانطفاء والاختفاء عن الأنظار، فيصاب بالأرق الدائم، وتكثر شكواه، ولا يخفي بكاءه على سالف الزمن، وادكار معاهد الشباب، فشاعر الطبيعة المنطلق، قيدته سنه وشيخوخته، فقص علينا من تجربة شيبه أحسن القصص، نتعرف تجلياتها الموضوعية بحسب ما نطق به شعره، نجملها في :

١. صدمة الشاعر وحساسيته من الشيب لأول طلوعه، وخوفه من انتشاره:

حين يجد الشاعر نفسه وقد بدأت طلائع الشيب تظهر على عذاره، فيضطرب، ويعبر عن هذه التجربة منذ هذه اللحظة، ويطالعنا بألفاظ ذات وقع شديد على نفسه نحو " أرِقْتُ "[٧] راعني "، وهالني[٨] ، و" ساءني "[٩]. وقد أفرد للحديث عن طلائع شيبه قصيدة، أودعها موقفه ونفسيته المتأثرة من ظهور المشيب، فيراه رزءا ومصيبة، ويبدأ معه كابوس الخوف من استطاره وزحفه على شعَره مما يؤذن باقتراب أجله.

يفتتح الشاعر حديثه عن الشيب بما أحدثه في نفسه هذا الشيب الطالع من الأرق والانزعاج، ولا يصل بالمرء أمر يدخله في الأرق، إلا لإحداثه عميق أثر وألم في داخلة نفسه، وهو إن كان أول طالعة شيب، قد أحدثت كل هذا التأثير، فكيف إذا استحالت سحابة شيب. يقول[١٠]:

أرِقْتُ على الصِّبى لطلوعِ نجْمٍ ... أسمِّيه مُسامحةً مشيبا
كفاني رُزْءَ نفسٍ أنْ تبدَّى ... وأعظمُ منه رُزْءاً أن يغيبا
ولولا أن يشُقَّ على المعالي ... للاقيتُ الفتاة به خضيبا
فلم أعْدمْ هناك به شفيعا ... إلى أملٍ ولم أبرحْ حبيبا
غريبةُ شيبِ فودٍ إن تمادتْ ... حياتي آلَ أسودُه غريبا

[٨] .ديوان ابن خفاجة ص٢٥٨.
[٩] الديوان: ص٨٥.
[١٠] الديوان: ص١٢٧.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

ولحمل الشاعر عبْء هذا الطارئ تجده يؤكد ما لهذا الزائر من ثقل جسيم، وخطب عظيم، ينوء به كاهله، كما لو كان يحمل على ظهره جبل عسيب، يقول:

ونُئْتُ بحملها من عبْءِ خطبٍ كأني قد حملت بها عسيبا[11]

على أن ما يلفت الانتباه ظاهرة حساسية الشاعر من كل ما له صلة بالشيب لونا، أو شبهاً، أو نسباً.

وعفتُ كراهةً للشيبِ شيئاً يكون له شبيهاً أو نسيبا[12]

والشاعر هنا لا يخفي هذا القلق من استشراء الشيب وتماديه خلال حياته، فتتحول المعادلة من غربة لون شعره الأبيض بطلوع أوائله، إلى غربة شعره الأسود بعد تمكن اللون الأبيض من رأسه عموماً.

وفي الآن نفسه تبرز المفارقة النفسية لدى الشاعر وتضطرب ذائقته في التعاطي مع اللونين المتباينين؛ الأبيض والأسود وحساسيتهما ورمزيتهما، فيحبب لديه اللون الأسود رمز الشباب والفتوة والصبا، أيّاً كان مصدره، ويتفاءل به ولو كان يشبه لون الغراب، ويشمئز من اللون الأبيض رمز الشيب والوهن، وإن كان هذا اللون في الأصل رمز الصفاء والتفاؤل والحياة، فتنقلب لديه الموازين، فإذا باللون الأبيض رمزاً للتشاؤم والموت والفناء، وإذا بالغراب يغدو محبباً لدى الشاعر، فقط، لاصطباغه بصبغة السواد، وإذا بالحمام يغدو منبوذاً، فقط ،لاصطباغه بصبغة البياض، ليس هذا فحسب، بل لتمتد أبعاد هذه المفارقة اللونية إلى مفارقة صوتية، فنعيب الغراب صوت نشاز مستكره، تنبو عنه الأسماع، وتشمئز منه النفوس، فإذا به يضحى نغماً موسيقياً يلتذ لسماعه الشاعر، وتهفو نفسه إليه، لمجرد صدوره عن طائر لونه أسود، وبالمقابل، يتحول هديل الحمام الشجي إلى صوت نشاز مستكره إلى نفس الشاعر، لكونه صادرا عن طائر لونه أبيض. وعبر الشاعر عن هذه المفاضلة بأفعل التفضيل " أحسن ".

[11] .الديوان: ص١٢٧.
[12] .الديوان: ص١٢٧.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

وعفـــتُ كراهـــةً للشـــيبِ شـــيئاً يكـــون لـــه شـــبيهاً أو نســـيبا
فأحســـنُ مـــن حمـــامِ الشـــيبِ غنّـــى غـــراب شـــبيبةٍ ألـــفَ النعيبـــا[١٣]

إن هذه الحساسية لتتحول إلى عداوة شديدة لكل ما يرمز للبياض وحامله، حتى لو كان منظراً طبيعياً، طالما كان الشاعر ـ وهو شاعر الطبيعة الأول ـ تغنى بحسنه وجماله، فإذا بهذه الطبيعة المُؤثرة لديه وقد لبست اللون الأبيض أضحت خارجة عن دائرة محبوبات الشاعر، عبر عن ذلك بقوله شنئتُ، من الشنآن، أي العداوة، يقول:

شـــنِئْتُ لمجتلاهـــا النّـــورَ حتـــى شـــنئْتُ لمجتلـــى النَّـــور القضـــيبا[١٤]

وإذا به ينقبض من مجرد طلوع وردة في غير أوانها، يقول:

وغريبـــــةٍ هشّـــــتْ إلى غريـــــرةٍ فـــودِدْتُ لـــو نُسِـــخَ الضـــياءُ ظلامـــا
طلعـــتْ علـــيّ مـــع المشـــيبِ تشـــوقني شـــيخاً كمـــا كانـــت تشـــوقُ غلامـــا[١٥]

وما زال الشاعر يلح هنا على الثنائية بين اللونين الأسود والأبيض في صورة ثنائية بين الليل والنهار، رمزين للسواد والبياض، للشباب والشيب، ورغبته أن ينسخ الظلام الضياء فيحل بدلاً عنه، فيها مبالغة نفسية، تحيل على أنّ إشراقه النفسي ليس في الضياء (الشيب)، وإنما في الظلام ببعده اللوني الأسود الحالك الدال على الشباب.

واستمرت معه حساسيته هذه لتأخذ منحى خطيراً من الخوف والقلق والمرض النفسي كلما تقدم به العمر واشتعل رأسه شيباً، فنجد حالة الفرَق والفزع من صورة الشيب تتلبسه، مع تقدم عمره، فإذا كان سماه أول طلوعه مسامحة مشيباً، فإنه هاهنا "شيبةً "، اسماً ومسمى وزمناً، ويشبه نفسه بالغراب الأسحم أول شبابه، ثم أضحى غراباً أبقعاً. ثم يتحسر لهذا التحول المريع في سنه وكبره ويطلق الآهات تلو الآهات ، ويبكي دماً على فقدان شبابه :

[١٣]. الديوان: ص١٢٧.
[١٤]. الديوان: ص١٢٧.
[١٥]. الديوان: ص١٤٦.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

ومـــا راعـــني إلا تبسُّـــمُ شـــيبةٍ نكـــرتُ لهـــا وجـــهَ الفتـــاةِ تجهُّمـــا
فعفْـتُ غرابـاً يصـدعُ الشـملَ أبقعـا وكـان علـى عهـدِ الشـبيبةِ أسـحما
فـــآهٍ طـــويلاً ثـــمَّ آهٍ لكِـــبرةٍ بكيـتُ علـى فقـدِ الشـبابِ بهـا دمـا[١٦]

٢. بكاء الشاعرِ شبابَه وحنينه إليه:

في هذه الأثناء، عبر الشاعر عن حالة التحول المُريع في حياته، وانتقاله من زمن الشبيبة إلى زمن الشيبة والشيخوخة، فعانى صراعاً وغربةً وألماً، أفضى به إلى حالة نفسية مرَضية، " لقد بكى ابن خفاجة زمن الشباب، وندبه في حزن عميق، وإن هذه الإشكالية: الشباب/ الشيخوخة، تعد محور شعره في الفترة الثانية من حياته، وهي الفترة الأطول بالقياس النفسي للزمن".[١٧]. بل إن ظاهرة بكاء الشباب والتحسر على الماضي تلح على الشاعر شعرا ونثرًا[١٨]. فهو يصرح كيف أنه يعاني من كثرة الكوابيس والأرق ليلاً، التي تصل إلى حد الصراخ والعويل؛ يقول في مقدمة إحدى رسائله: " فآه! ثم آه! على شباب قد انقلب، وذهاب قد اقترب... وعلى ذكر ذلك أني كنت منذ ليال قد أرقت... فما كان إلا أن صرخت عويلا، وانتحبت طويلا، حتى أيقظت من كان إلى جانبي ضجيعا... وحق لمن شاهد تضعضع أركانه، وتداعي بنيانه، وذهاب خلانه، وإدبار عمره وزمانه، أن يطرق هناك فكرة، ويملأ جفنيه عبرة، ويردد للأسف جمرة، حتى يذوب كمدا، أو يقضي حسرة.."[١٩].

وفي هذا السياق كثيرا ما عبر الشاعر عن إحساسه بسرعة انقضاء فترة شبابه، والتوجع على فقده، والحنين إلى عودته، بعد ما بلغ من السن، وهنا المفارقة والصراع النفسي أو الزمني، زمن يحاصره وهو زمن الشيخوخة، ولا مناص من المضي معه حتى نهاية المطاف، وزمن انقضى فعلاً، وهو زمن الشباب، لكنه ظل حياً في الذاكرة والذكرى.

---

[١٦] الديوان: ص١٣٧.
[١٧] الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، د. فاطمة طحطح، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٣م، ص٢١٠.
[١٨] الغربة والحنين ص٢١٠.
[١٩] الديوان: ص٦٤،٦٥. انظر أيضاً ص٢٠٢، ص٣١٤.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

ألا مضى عصر الصبا **فانقضى** وحبّذا عصر شبابٍ **مضى**
بتُّ به تحت ظلالِ المنى مُجْتنياً منه ثمار الرضى
ثمَّ مضى أحسبه كوكباً متكدِّراً أو بارقاً مومضا
فما تصدى ينتحي مقبلاً حتى تولى ينثني معرضا
وإنّما ضاءَ بليلِ الصبا صبحُ مشيبٍ ساءني أن أضا[٢٠]

فهاهنا استعمال لأفعال ذات دلالة السرعة والذهاب، مضى، انقضى ،والتقابل بين زمنين؛ إقبال وإدبار، التصدي والانثناء أو الإعراض. و"تبلغ هذه المفارقة مداها حين يعمد الشاعر إلى استخدام التضاد اللوني ممثلا في الأبيض الدال على الشيب والأسود الدال على شعر الشباب الحالك السواد (ليل الصبا/صبح المشيب) وكل هذا يكشف معاناة الذات وانشطارها بين الماضي والحاضر"[٢١].

والشاعر لا يستطيع أن يمسك بزمام الشباب لسرعة تفلته عليه، وانثنائه معرضاً، كأنّ كل شيءٍ مضى في لمح البصر، وترك لذعة وحسرةً:

تولّى الصبا إلا ادّكارَ معاهدٍ له لذْعةٌ بين الحشا والحيازمِ
أطلتُ له رجعَ الحنينِ وربّما بكيتُ على عهدٍ مضى متقادمِ[٢٢]

وفي الآن نفسه، نجد الشاعر مسكوناً بفجيعة الفقد، لاسيما وهو يشاهد فقد أصدقائه الواحد تلو الآخر، فيرثيهم بحرقة، ويجد في رثائه إياهم رثاء لنفسه الكئيبة الوحيدة، وهنا، نجد الشاعر يتحدث عن فقدين: فقد شبابه وفقد أصدقائه، وإنه ليجمع بين بكائه شبابه وبكائه أصدقاءه الذين قضوا شباباً وطوتهم يد الردى، فيرثيهم بنفس متألمة، لأنهم يذكرونه أيام شبابه ومعاهد أنسه معهم ، وإن رحيلهم هذا مؤذن برحيله هو، وهو أمر جعله في تأزم نفسي مرير، يذرف الدموع، ويرى أن الدنيا قد فقدت لذتها وقيمتها. ففي قصيدته اليائية ذات النفس الطويل التي يرثي فيها جملة

[٢٠] الديوان ص ٨٥.
[٢١] .تجربة الغربة والحنين في شعر ابن خفاجة، الأندلسي، فتيحة دخموش، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري. قسنطينة، الجزائر، العام الجامعي ٢٠٠٤/٢٠٠٥م،ص٨٨.
[٢٢] .الديوان: ص٢٥٩..

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

من الإخوان والأعيان، تلاحقوا في أقصر مدة من الزمان، ويندب ريعان الشباب، ومعاهد أولئك الأتراب، مطلعها[٢٣]:

كفاني شكوى أنْ أرى المجْدَ شاكيا وحسْبُ الرَّزايا أنْ تراني باكيا

وفيها يقول:

ألا إنَّ دهْراً قدْ تقاضى شبيبتي وصحْبي لدهْرٌ قد تقاضى المرازيا[٢٤]

إن خطاب الاقتران هذا ليمثل ثيمة نفسية ومعنوية، حيث يكشف الشاعر عن تجربة الفقد، فقداً لأحبائه وخلانه، وفقداً لشبابه وذهابه، وكثيراً ما ينبث هذا الخطاب في قصائد رثائه لأصحابه، منها قوله في رثاء الوزير ابن ربيعة:

حتّامَ أندبُ صاحباً وشبيبةً فتفيضُ عينٌ أو يحنُّ فؤادُ[٢٥]

وفي أخرى في رثاء الوزير نفسه مطلعها:

شرابُ الأماني لو علمْتَ سرابُ وعتبى الليالي لو فهمتَ عِتابُ[٢٦]

إلى أن يقول:

وكيف يفيضُ الدمعُ أو يبردُ الحشا وقد بادَ أقرانٌ وفاتَ شبابُ
فما نابَ عن خلٍّ الصبا خلُّ شيبةٍ ولا عاضَ من شرْخِ الشبابِ خضابُ
ألا ظعَنا من صاحبٍ وشبيبةٍ فهلْ لهما من ظاعنَيْنِ إيابُ[٢٧]

إنه خطاب يسيل أسى وحسرة على فقيدين، لا عوض لهما. ولازمة الثنائية بين الشباب والشيب لا تنفك عن إنجازه الشعري. فـ" نادراً ما تجد للشاعر قصيدة تخلو من ذكر الشيب والشباب، فقد ربط هذه الإشكالية بكل الأغراض المعروفة: ربطها بالغزل، بالمدح، بوصف الكون، كما ربطها بالرثاء[٢٨].

[٢٣]. الديوان ص١٩٨.
[٢٤]. الديوان ص١٩٨.
[٢٥]. الديوان ص٢٣٢..
[٢٦]. الديوان ص٢١٧..
[٢٧]. الديوان ص٢١٨..
[٢٨]. الغربة والحنين ص ٢١٢.

ISSN : 2410-1818
ISSN : 2410-521X

ويمتزج بكاء الشاعر شبابه بحنينه العارم لعودة أيام الصبا والأنس، حيث الانطلاق والامتلاء بالمتعة واللهو، وتمثلُ الذكرى والاسترجاع عنصرا موضوعيا في كسر واقعه النفسي المرير حيث الوحدة والكبر، والفقد، فنراه يجتر ذكرياته ويتشبث بماضيه، ويصبح نهبا لأحلام اليقظة التي لا يجد غيرها ميدانا لتحقيق الذات وتعويض ما فات، فنجده يشيد بالماضي وبما حققه في أيام شبابه، ولهذا نراه كثيراً ما يبكي هذا الشباب الغارب الذي كان فيه أشد قوة وقدرة على الفعل[٢٩]، وإنَّ هذا الانجذاب النفسي للشاعر نحو ماضيه الشبابي، ليهيمن كثيراً على خطابه الشعري[٣٠]، بل إن هذا الحضور المكثف للماضي في شعر ابن خفاجة أهم ما يميزه عن بقية الشعراء[٣١].

وهنا تتجلى معاناته النفسية في الإكثار من أمنيات الحنين والعودة إلى الماضي الزاهر، الذي مضى بسرعة كأن لم يكن، وإن كان هو يعلم باستحالة عودة الزمن إلى الوراء، لكنه يخترق هذا الناموس من خلال الاسترجاع والذكرى، التي تنسيه حاله وواقعه المر، فيسترجع شريط ذكرياته، زمان المحاسن، كل ذلك نجده في إحدى قصائده، الجامعة بين الحاضر المؤلم والماضي المؤنس:

زمـــانٌ تـــولَّى بالمحاســـنِ عـــاطرٌ ... تكـــادُ لياليـــه تســـيلُ غواليـــا
تقضَّـــى وأبْقـــى بـــينَ جـــنبيَّ لوْعـــةً ... أنـــاجي لهـــا أخـــرى الليـــالي البواكيـــا
كـــأنِّي لمْ آنـــسْ إلى اللـــهوِ ليلـــةً ... ولمْ أتصـــفّحْ صـــفحةَ الـــدَّهْرِ راضـــيا[٣٢]

إلى أن يقول:

فهـــلْ مـــن لقـــاءٍ معْـــرضٍ أو تحيّـــةٍ ... مع الرّكبِ يغشى أو مع الطيفِ ساريا
فهـــا أنـــا والأرْزاءُ تقْـــرعُ مـــرْوةً ... بصـــدْري وقلبـــاً بـــينَ جـــنْبيّ حانيـــا
أحِـــنُّ إذا مـــا عسْـــعسَ الليـــلُ حنّـــةً ... تـــذيبُ الحوايـــا أو تفـــضُّ التراقيـــا[٣٣]

[٢٩] .تجربة الغربة والحنين ص٥٤.
[٣٠] .الديوان انظر ص٥٦.
[٣١] الغربة والحنين، ص٢١١.
[٣٢] .الديوان ص١٩٩.
[٣٣] .الديوان ص١٩٩.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

وتزدحم في مخيلته الأحلام والذكريات الملاح، وتشتد لهجة الحنين إلى مغاني الديار، والنفس ترتمي بين أحضان الطبيعة الخلابة، لكنه سلطان التحول العمري، حال دونها، والبعد في الزمان والمكان:

فكم شاقني من منظرٍ فيك رائقٍ ... هززْتُ من مِعْطفِ السكرِ صاحيا
وضاحكني من أُقْحوانٍ ومبسمٍ ... فلم أدرِ أيٌّ كان ثمَّ الأقاحيا
ودون حُلى تلك الشبيبةِ شيبةٌ ... حليتُ بها رغْماً ولم أكُ حاليا
وإنّ أجدَّ الوجدِ وجدٌ بأشمطٍ ... تلددَ يستقري الرسوم البواليِ[٣٤]

وحينها تلتقي عند الشاعر أحاديث غربتين: غربة المكان (ووحشته أحيانا) بغربة الزمان وصيرورة الشباب إلى ذكريات مؤرقة حزينة[٣٥]. وفي هذا الشأن يزفر الشاعر بأشواقه تلقاء معاهده بجزيرة شقر، ويندب ماضي زمانه و تتحول تلك الأشواق إلى حسرات وآهات:

بينَ شُقْرٍ وملتقى نهريها ... حيث ألقت بنا الأماني عصاها[٣٦]
آهٍ من غربةٍ تُرقْرقُ بثّاً ... آهٍ من رحلةٍ تطولُ نواها
آهٍ من فرقةٍ لغيرِ تلاقٍ ... آهٍ من دارٍ لا يجيبُ صداها
لستُ أدري ومدمعُ المزنِ رطبٌ ... أبكاها صبابةً أم سقاها
فتعالي يا عينُ نبكِ عليها ... من حياةٍ إن كان يغني بُكاها
وشبابٍ قد فاتَ إلا تناسيه ... ونفسٍ لم يبقَ إلا شجاها[٣٧]

٣. معاناته وشكواه في كبره و شيخوخته:

وهي مرحلة طويلة، حيث عمر ابن خفاجة طويلاً، فيذكر في إحدى قصائده أنه ابن إحدى وثمانين سنة، وقد تعطلت لديه كل قواه فأصبحت الكبرة مصدر وهن وخوف وقلق.

---

[٣٤] .الديوان ص١٩٩.
[٣٥] ..في الأدب الأندلسي، د. محمد رضوان الداية، دار الفكر بدمشق، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م نفسه ص٣٣٦.
[٣٦] .الديوان ص٣٦٤..
[٣٧] .الديوان ص٣٦٥..

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

وفي هذه الفترة الطويلة والحرجة من حياة ابن خفاجة، نجده يطالعنا برصدها والحديث عنها وعن معاناته، والعجب انه مهتم بتأريخ سنه في غير ما قصيدة ورسالة[٣٨]، فتارة يؤرخ لسنه وقد بلغ الخمسين سنة، وتارة أخرى وقد بلغ الستين، وآخر وقد بلغ إحدى وثمانين سنة، مما يؤكد إحساس الشاعر بالزمن، وأن الزمن يمثل إشكالية لديه.

وفي هذه الأثناء، نتعرف معاناته من علل وأمراض، لا يتحرج أن يرفع عقيرته بها، ويرسم لنا صورته وهو شاحب ناحل قد تعرق جسمه، حتى إن رساما ليستطيع أن يجمع هذه العناصر ليرسم لنا صورة لملامح رجل شيخ هرم، قد اشتعل رأسه شيباً، ودق جسمه، وبدت عروقه، وربما احدودب ظهره، متكئاً على عصاه.

ومن أمثلة شكواه من كبر سنه، ومن تغير حاله إلى درجة أنه لا يجد الأشياء كما عهدها سابقاً، قوله[٣٩]:

فـــآهٍ طـــويلاً ثـــمَّ آهٍ لِكِبْـــرةٍ بكيـتُ علـى فقْـدِ الشَّـبابِ بهـا دمـا
وقـد صَـدِئتْ مـرآةُ طـرْفي ومِسْـمعي فمـا أجِـدُ الأشْـياءَ كالعهْـدِ فيهمـا

فهاهنا تتصاعد آهات الشاعر بحرقة وهو يرى نفسه، قد كبرت سنه، وجعل ينظر لشبابه الفائت، كفقيد، يرثيه ويبكيه دما بدل الدموع.

على أن إحساس الشاعر هذا بالكبر، تولد عنه إحساسه بالعجز والضعف في قواه الجسمية والجنسية، وهو أمر طالما أرقه، وأدخله في أزمة نفسية، نجد ملامحها في خطابه الغزلي لجارية صغيرة ، تسمى عفراء، يتمنى وصالها، وهو ابن إحدى وخمسين سنة ليقطف ثمرتها، ويحظى بذاك الخشف فيأكله عضاً، ويشربه لثماً، لكنها "تمنيات البائس الذي تتأجج في صدره رغبة عارمة في الرجوع إلى زمن الفتوة والفحولة الجنسية"[٤٠] لكنها تصطدم بصخرة كبره وعجزه، فيتألم، ويتحسر، وإن مما عمق تجربته النفسية وحدته فقد ظل صرورة لم يتزوج قط.[٤١].

[٣٨] . الديوان ص٣١٤: يقول من رسالة: " أما حال من يعتقدك قسيمه، ويجد بذكرك برد الأنس ونسيمه، فحال من خلّف السبعين وراءه، فهو يرتقب يومه، ويندب أمسه، ويودع دنياه".
[٣٩] . الديوان ص٢٣٧.
[٤٠] . الغربة والحنين ص٢١٣.
[٤١] .تاريخ الأدب الأندلسي. عصر الطوائف والمرابطين. د. إحسان عباس،دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠١م ص١٦٤.

ISSN : 2410-1818
ISSN : 2410-521X

يقول[٤٢]:

وأقْرئْ عفيراء السلامَ وقلْ لها ... ألا هل أرى ذاك السَّهى قمراً تمّا
وهل يتثنّى ذلك الغصْنُ نضْرةً ... بجزْعي وهلْ ألْوي معاطفَه ضمّا
ومنْ لي بذاك الخِشْفِ من متقنّصٍ ... فآكلُه عضاً وأشْربُه لثْما
ودونَ الصِّبا إحدى وخمسون حِجّةً ... كأنّي وقد ولّتْ أُريتُ بها حُلْما
فيا ليتَ طيرَ السّعْدِ يسْنحُ بالمُنى ... فأحْظى بها سهْماً وأبْأى بها قسْما
ويا ليتني كنتُ ابن عشرٍ وأربعٍ ... فلمْ أدْعُها بنتاً ولمْ تدْعُني عمّا

ومن مظاهر معاناته في هذه المرحلة العمرية كثرة شكاياته من العلل، مع نحول جسمه وهزاله وتعرقه وكأنه يسبح في بحر من الشكاية، ، فيرجو أن ينجو منها إلى بر عافية، يقول[٤٣]:

فقلتُ وقد خلّفْتُ خمسينَ حِجّةً ... ورائي لقد أعجلتُ طيَّ المراحلِ
أنُوءُ بعِبْءِ السقْمِ بينَ حُشاشةٍ ... تجودُ وجسمٍ قد تعرَّقَ ناحلِ
وأسْبحُ في بحْرِ الشّكاةِ لعلني ... سأعلقُ يوماً من نجاةٍ بساحلِ

ونجده في غير ما موضع يشكو من أنه أصبح نهباً للشكايا[٤٤]، على أن أوج المعاناة تزداد وتعظم في أخريات حياته وقد بلغ من السن إحدى وثمانين سنة، فيشعر بالفقد الحسي والمعنوي، فلا أنس، ولا طعم لغذاء ولا هناء بنوم أو سنة، يقول[٤٥]:

أيُّ أُنْسٍ أو غِذاءٍ أو سِنهْ ... لابنِ إحدى وثمانينَ سَنهْ
قلَّصَ الشّيْبُ بها ذيْلَ امرئٍ ... طالما جرَّ صباه رسَنَهْ
تارةً تخطو به سيّئهْ ... تسْخنُ العينَ وأخرى حسَنهْ

---

[٤٢] الديوان ص٨١.
[٤٣] الديوان ص٢٦٢.
[٤٤] الديوان ص٢٨٧.
[٤٥] الديوان ص٣٥٥.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

٤. اعتباره وزهده:

ليس التحول الذي انتاب الشاعر مقتصراً على الزمن فحسب، بل ثمّة تحول في النظر والفكر لدى الشاعر، فنجده يفلسف الأشياء، ويتأملها، ويسبر غورها، فتبرز رؤيته الفلسفية للحياة ولقضايا الموت والفناء والمصير، فتتكرر مفردات العبرة والاعتبار، وتتغير نظرته للطبيعة فيربطها بالعبرة أو بمشكلة الفناء التي كانت تلح على نفسيته إلحاحاً يلحق بالمرض النفسي، وقد بلغ بها حداً تجاوز به كل ما قاله في شعر الطبيعة.[٤٦] بل يرى آخر أنه ارتقى في شعره من صوفية الرضي الدينية نحو فضاء الصوفية الكونية، خاصة انه كان ذا نزعة وجدانية مشحونة بالقلق باحثة عن الذات[٤٧].

على أن شبح الموت دائماً ما يتراءى للشاعر، فيسكنه شعور الخوف من الرحيل، لما يعاين من تتابع فجائع الدهر عليه، بفقده رفقاءه وأصفياءه وأصحابه شباباً في فترات متلاحقة، مما ولّد لديه هزّة في التفكير أو صدمة نفسية، جعلته باحثاً عن مهرب لهذا الفناء المتعددة صوره، الجاثمة على صدره، فهو يغادر منزله وحيداً، حتى إذا صار بين جبلين وقف يصيح: يا إبراهيم تموت، ويتردد صدى صوته حتى يسقط مغشياً عليه. إن هذا موقف مرضي في خوفه من الموت وفي إحساسه بالزمن[٤٨].

إن الشاعر لمسكنون بهذا الهاجس المقلق ، تترجمه كثرة تساؤلاته عن جلية هذا الذهاب، ذهاب أصحابه وشبيبته، ولا مجيب، إلا أنه يعود إلى نفسه ويصارحها بأن الذاهبين لا يرجعون، ليس هذا فحسب، بل إن خوفه من الانطفاء وهو يستشعره ليأتي في صورة إقرار منه بأنه مهما أحبّ وصاحب، فإن هذه الصحبة إلى فراق، وأن أنوار الشباب مآلها إلى رماد وانطفاء.

[٤٦] تاريخ الأدب الأندلسي. عصر الطوائف والمرابطين. د. إحسان عباس ص١٦٧.
[٤٧] .خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي " قصيدة الجبل أنموذجاً" راشد عيسى، ونضال الشمالي: مجلة جامعة النجاح للأبحاث والعلوم الإنسانية، مجلد ٢٥(٨)، ٢٠١١، ص١٩٨١،
[٤٨] .تاريخ الأدب الأندلسي. عصر الطوائف والمرابطين، د. إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠١م، ص١٦٤.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

حتّـــامَ أنـــدبُ صـــاحباً وشـــبيبةً فتفـــيضُ عـــينٌ أو يحـــنُّ فـــؤادُ
أقْصـــرْ فـــلا ذاك الخليـــلُ بآيـــبٍ يومـــاً ولا ذاك الشـــبابُ مُعـــادُ
فقُصـــارُ مجتمـــعِ الأصـــاحبِ فرقـــةٌ وجُمـــارُ أنـــوارِ الشـــبابِ رمـــادُ[٤٩]

ويلقى الشاعر نفسه وهو مثخن بجراح النوائب والمصائب، مستهدفاً بسهامها، فيثقل عليه الأمر، فوق ثقل سنه وهرمه، فتتضاعف معاناته:

فيـا لهـمْ مـن ركـبِ صـحبٍ تتـابعوا فـرادى وهـمْ مُلْـدُ الغصـونِ شـبابُ
دعـا بهـم داعـي الـردى فكأنّمـا تبـارتْ بهـم خيـلٌ هنـاك عِـرابُ
فهـاهم وسَـلْمُ الـدهرِ حـربٌ كأنمـا جثـا بهـمُ طعْـنٌ لـه وضِـرابُ
فحتّـى متـى تـبري الليـالي سـهامَها وحتـى متـى أُرْمـى بهـا وأصـابُ
وحتـى متـى ألقـى الرزايـا ممضّـةً كمـا كرعـتْ بـين الضـلوع حـرابُ[٥٠]

ولعل أبرز ما يكشف توجه الشاعر الاعتباري وخوفه من المستقبل والمصير قصيدته البائية التي عنون لها "في الاعتبار"، ومطلعها:

بعيشِـك هـل تـدري أهُـوجُ الجنائـبِ تخُـبُّ برحلـي أم ظهـورُ النجائـبِ[٥١]

وهي قصيدة في وصف الجبل، وفي حقيقتها رحلة تأملية في عمره وحياته ،تخفي قلقاً من الموت، وتشبثاً بالحياة، تشبث الجبل بمكانه. وتطرح القصيدة إحساس الشاعر بالغربة النفسية والزمانية حينما طال به العمر ووجد نفسه وحيدا دون أصدقاء أو أقرباء، الأمر الذي ولد في ذاته إحساسا آخر بالقلق والخوف من الحاضر والمستقبل المجهول وهذا ما تجسده القصيدة التي يصف فيها الجبل بل يصف– في حقيقة الأمر - ذاته ومعاناته وشدة إحساسه بالزمن من خلال هذا الجبل الخاص كما رآه الشاعر وعاينه[٥٢].فجعل الشاعر من الجبل معادلاً دلالياً لشخصه ولنفسه، فالجبل وابن خفاجة يتفقان بسمات مشتركة كعلو الهمة وشموخ الكبرياء وطول العمر، وتعدد التجارب، ومهابة الوقار[٥٣]، كما " ينكشف النص عن مغزاه أو أبعاده الحقيقية، فيعكس تجربة

[٤٩] .الديوان ص٢٣٢..
[٥٠] .الديوان ص٢١٨...
[٥١] .الديوان ص٢١٥...
[٥٢] .تجربة الغربة والحنين ص١٢٦.
[٥٣] .خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي، مجلد ٢٥(٨)، ٢٠١١، ص١٩٨٢.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

الذات الشاعرة المهمومة بقضايا الوجود والموت والمصير، وقد بدت غير قادرة على استيعاب حقيقة الموت، ففقدت تماسكها وأصابها الذعر والسأم وهي ترى الأهل والأحباب والأصحاب يرحلون عنها بلا عودة، ووجدت نفسها ـ وقد امتد بها العمر ـ تقف وحيدة كالجبل، تتلقى ضربات العواصف من كل اتجاه، ويحاصرها الظلام، وتستحيل الحياة أمامها إلى صحراء قاحلة موحشة، وهنا يبدو الحلم بالرحيل إلى الشاطئ الآخر ـ حيث الأحباب الراحلون هو الملاذ أو الأمل الذي تعتنقه.[٥٤]

وفي النهاية تطفح نفسه المتسائلة على سطح القصيدة، بقولها:

فحتى متى أبقى ويظعن صاحبٌ ... أودِّعُ منه راحلاً غير آيبِ
وحتى متى أرعى الكواكبَ ساهراً ... فمن طالعٍ أخرى الليالي وغاربِ
فرحماك يا مولاي دعوة ضارعٍ ... يمدُّ إلى نعماك راحةَ راغبِ[٥٥]

هذا، والشاعر يأخذه النظر إلى التفكر في الأمور، لاسيما وهو يراقب نفسه تنهار أمام الزمن الزاحف، وتيار الرحيل الجارف، فيرى في ذهاب شبابه إيذاناً بذهابه، هكذا بدا تفكيره:

أما وشبابٍ قد ترامتْ به النّوى ... فأرسلْتُ في أعقابه نظرةً عبرى[٥٦]

ويُعمل مبدأ القياس، والاستدلال، ليقنع نفسه بالنتيجة المرة، وهي الرحيل لا محالة، فهو يرى سنّه تنتقص أطرافها، وإنها لمعادلة عكسية صعبة في حياته، فحيثما تكن زيادة في سنه يكن نقص في حياته ، إنه الإحساس بالزمن، وفعله فيه فعل النحت في الجبل، حتى يخر بلا حراك.يقول:

[٥٤] النص الشعري وآليات القراءة، د. فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٦م، ص٢٢٠.
[٥٥] .الديوان ص٢١٧
[٥٦] .الديوان ١٤٨.

ISSN : 2410-1818
ISSN : 2410-521X

إلا أنّهـــا سِـــنٌّ تزيـــدُ فـــأنقصُ ونفضـــةُ حمّـــى تعتريـــني فـــأرقصُ
فهـا أنـا أمحـو مـا جنيـتُ بعبرتـي وأنظـرُ فيمـا قـد عملـتُ أمحّـصُ
وألمـحُ أعقـابَ الأمـورِ فـأرْعوي وتستشـرفُ الـدنيا علـيّ فـأحرصُ
أقلّـبُ عـينَ الـرأي طـوراً فـأجتلي ويعمـى علـيَّ الأمـر طـوراً فـأفحصُ
ويـا ربَّ ذيـلٍ للشـبابِ سـحبتُه ومـا كنـتُ أدري أنّـه سـيقلّصُ[٥٧]

إن الشاعر وهو امرؤ شيخ وشيبة، لا يليق به أن يرتع فيما كان يرتع فيه في شبابه، ويبرز ابن خفاجة المتنسك المتدين، وقد أقلع عن ملذاته، ولوى عنانه عن مجونه، فيعلنها صحوة ويقظة لكنها في وقت متأخر، بعد أن غدا له من شيبته نذير وواعظ:

فمـنْ مبلـغٌ عنّـي الشـيبةَ أنّـني لويـتُ عِنـاني عـن طريـق الجـرائمِ
ومِلْـتُ بطـرفي عـن فتـاةٍ وقهـوةٍ وعطّلـتُ سمعـي مـن مـلامِ اللـوائمِ
فهل ساءَ دعداً أنْ كبرنا عن الصبا ولُثْنـا علـى الأحـلامِ بـيضَ العمـائمِ
صحوْنا وقـد أصـحت هنـاك سماؤنـا وكنّـا نشـاوى تحـت ظـلِّ الغمـائم
فمـا **راعـني** إلا ومـيضٌ **لشـيبةٍ** توقّـدَ في قطـعٍ مـن الليـلِ فـاحمِ
ولا هـالني إلا نـذيرٌ **برحلـةٍ** مسـحتُ لـه مـن روعـةٍ جفـنَ نـائمِ[٥٨]

إننا نتبين في خطاب ابن خفاجة في شيبته، نظرات زهدية، تنتظم في استشعار الشاعر حقارة الدنيا، وأنها غير مأسوف عليها، والعائش فيها راحل مهما عمر، فها هم أولو رحمه ولداته قد غادروها كرهاً، وفي هذه اللحظات تمسك العبرة بحلق الشاعر الرقيق، وتخيم عليه سحابة حزن، وهو ينظر إلى حاله حيث لا شبيبة ولا خلان ولا أهل، فيقنع نفسه تارة أخرى بأنه سيغدو وراء القوم أو يروح لا محالة، ومن هنا نتبين أيضاً شدة قلقه من الموت أو خوفه منه، بقوله:

[٥٧] .الديوان ص٢٧٨.
[٥٨] .لديوان ص٢٥٨، ٢٥٩. وانظر ص١٦٣.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

كفـــى حَزَنـــاً أن لا وجـــودَ شـــبيبةٍ ولا توبـــةٌ ترضـــي الإلـــهَ نصـــوحُ
وأنّـــي وقـــد أودتْ لِـــداتي وأســـرتي ســـأغدو وراءَ القـــومِ أو ســـأروحُ
فلـــمِ يغـــنِ نوحـــاً والمنـــونُ بمرصـــدٍ تراقبـــه أن كـــان عمّـــر نـــوحُ
فـــذرني أنـــحْ حزنـــاً وقـــلَّ لمجـــرمٍ تـــدانتْ خطـــاه أن يكـــون ينـــوحُ[٥٩]

ومن المعاني التي بثها الشاعر في خطابه الزهدي الأوبة والتوبة، وتأنيب الذات والندم والبكاء على التفريط في جنب الله، لقد كان "ابن خفاجة" شديد الإحساس بدنو الأجل، شديد الخوف من الموت، ولعل هذا ما دفعه في ريعان شبابه إلى الاستغراق في الملذات، واغتنام فرص المتعة على حين جنح في شيخوخته إلى الزهد والتوبة"[٦٠]، وهذا ما أكده ابن خاقان عنه بقوله إنه كان " في شبيبته مخلوع الرسن، في ميدان مجونه، كثير الوسن، بين صفا الانهتاك وحجونه، لا يبالي بمن التلبس، ولا أي نار اقتبس"[٦١]، لكنه في آخرة من حياته نسك نسك ابن أذينة[٦٢]، فنجده يصف حاله بالعبودية، والتبتل بين يدي الله خوفا وطمعاً، يقول:

طـــوبى لعبـــدٍ قـــام خشـــيةَ ربِّـــه والليـــلُ قـــد ضـــرب الظـــلامَ رِواقـــا[٦٣]
فحنانـــك اللـــهمَّ في عبـــدٍ غـــوى زمنـــاً فشـــدَّ إلى الفســـوقِ نطاقـــا
قلـــق المضـــاجعِ بـــاتَ يقـــرعُ سِـــنّه نـــدماً ويرســـل دمعـــه إشـــفاقا
ســـحبَ الشـــبيبةَ في الغوايـــةِ ضِـــلّةً حتـــى تســـربلَ ثوبهـــا أخلاقـــا
فلـــئن ســـطوتَ بـــه فـــلا ظلمـــاً لـــه ولـــئن صـــنعتَ لـــه فـــلا اســـتحقاقا[٦٤]

إن فكرة الموت تلازم الشاعر كثيراً وتسكنه، ولا يجد بأساً في الكشف عن هذا الشعور والتصريح به، وهو يخاطب ابن أبي الخصال، ويصف له حاله وقد خلف وراءه السبعين، " فهو يرتقب يومه، ويندبُ أمسه، ويودع دنياه وينشد نفسه:

[٥٩] .الديوان ص٣١٠..
[٦٠] .تجربة الغربة والحنين ص٥٦.
[٦١] .قلائد العقيان. ق٣/ص٧٤٠.
[٦٢] .نفسه.
[٦٣] .الديوان ص٢١٤..
[٦٤] .الديوان ص٢١٤..

ISSN : 2410-1818
ISSN : 2410-521X

هـــل فـــاتَ صـــرفَ الـــردى لبيـــدُ وطـــــاول الـــــدهرَ لا يبيـــــدُ[٦٥]

إلى أن يقول:

فـــــوِّضْ وســـــلِّمْ إلى قـــــديرٍ تجـــري الليـــالي بمـــا يريـــدُ
فهـــو الكـــريمُ الحكـــيمُ فيمـــا يفعـــــلُ والمبـــــدئُ المعيـــــدُ
وارضَ بـــــدارِ البلـــــى محـــــلاً لعلـــــــه منـــــزلٌ ســـــعيدُ
فربّمـــــا فـــــزْتَ بالأمـــــاني إذا طـــــوى شِـــــلْوَك الصـــــعيدُ[٦٦]

ليس هذا فحسب، بل يعد الشاعر ابن خفاجة ممن رثوا أنفسهم قبل مماتهم، وأوصى أن تكتب أبيات له على قبره، وفيها يقول:

خليلـــيّ هـــل مـــن وقفـــةٍ لتـــألُّمِ علـــى جـــدثي أو نظـــرةٍ لترحُّـــمِ
خليلـــيّ هـــل بعـــد الـــردى مـــن ثنيّـــةٍ وهـــل بعـــد بطـــن الأرض دارُ مخـــيّم
وإنّـــا حيينـــا أو ردينـــا لأخـــوةٌ فمـــن مـــرَّ بـــي مـــن مســـلم فليســـلّم
ومـــاذا عليـــه أن يقـــول محييـــاً ألا عـــمْ صـــباحاً أو يقـــول ألا اســـلم
وفـــاءً لأشـــلاءٍ كـــرمنَ علـــى البلـــى فعـــاجَ عليهـــا مـــن رفـــاتٍ وأعظـــمِ
يـــردُ طـــوراً آهـــةَ الحـــزن عنـــدها ويـــذرف طـــوراً دمعـــةَ المترحّـــم[٦٧]

المبحث الثاني: تجليات أسلوبية في تجربته

تكشفت لنا تجربة الشيب عند ابن خفاجة من خلال عناصر أسلوبية وفنية تعبيرية، تشكل منها خطابه الشعري، يمكن تبيانها في:

١. المفارقة الفنية والرمز:

وتتبدى من خلال دوران حديث الشاعر بين أمرين متقابلين، متناقضين، كل منهما ضد للآخر، وعهدين متفارقين زمناً وحالاً، ونعني بهما الشباب والشيب. إذ كانا محوراً هاماً في تجربته النفسية ومعاناته، وهذه الثنائية تعرضها عناصر بلاغية، لعل أبرزها التشبيه، والطباق، وعناصر طبيعية كعالم الحيوان لاسيما الغراب والحمام،

[٦٥] . الديوان ص٣١٤.٣١٥...
[٦٦] . الديوان ص٣١٥...
[٦٧] . الديوان ص٣٦٣...

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

ومن خلال توظيف اللون، وهي في النهاية تؤول إلى خلق صورة نفسية وفنية، بأبعاد رمزية، تكشف حقيقة المعاناة لدى الشاعر.

إن الشاعر حرص على إظهار المفارقة بين عهدين وزمنين؛ أحدهما مشرق، والآخر مؤرق له، من خلال استدعاء عنصرين طبيعيين من عالم الطيور، وهما الغراب الأسحم، والحمام الأبيض، وجعل منهما رمزين لهذين العهدين، بجامع اشتراكهما في لونيهما، فرمز للشباب بالغراب لاصطباغه باللون الأسود، من حيث إن الشباب يتمتع ذووه بلون أسود لشعورهم. وأن ذوي الشيبة لون شعورهم أبيض، فرمز بالحمام لهم. فانظره يقل:

فأحسنُ من حمامِ الشيبِ غنّى غراب شبيبةٍ ألفَ النعيبا[٦٨]

فشبه الشيب بالحمام بجامع لونهما الأبيض، وشبه الشبيبة بالغراب بجامع السواد، وكلاهما من باب التشبيه البليغ. وهنا، نجد تكثيفاً دلالياً آخر، ترشح في الطباق المركب (المقابلة) بين حمام الشيب وغراب الشباب، إذ أضفى على هذه الصورة، مفارقة لا من حيث اللون فحسب، بل من حيث الصوت أيضاً، وكان الحسن أصلا في الحمام وشدْوها، والقبح في الغراب ونعيبه، لكن الشاعر هاهنا من واقعه النفسي، نقض هذا العرف الجمالي، وعكس القضية في التحسين والتقبيح، فهو يرى الحسن كل الحسن فيما يذكره بشبابه ـ وهو لون الغراب هنا ـ ومن ثمة امتدح نعيبه، والقبح كل القبح في اللون الأبيض ـ وهنا لون الحمام ـ ومن ثمة اطرح غناءها وهديلها وآثر عليه نعيب الغراب.

هذا، ويقدم الشاعر للشيب والشباب في صورة مرتبطة بالإشراق والإظلام، بجامع اللون أيضاً، فرمز للشباب في اسوداده بالليل والظلام، وتمنى أن لو ينسخ النهار ظلاماً، رغبة جامحة منه في رجوع عصر الشبيبة، ورمَز للشيب لابيضاضه بالصبح والنهار، وهو ما أساءه وأقض مضجعه. يقول:

وإنّما ضاءَ بليلِ الصبى صبحُ مشيبٍ ساءني أن أضا[٦٩]

[٦٨]. الديوان ص١٢٧.
[٦٩] الديوان ص ٨٥.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

ويقول في موضع آخر:

وغريبـــــةٍ هشّـــــتْ إلى غريـــــرةٍ فـــودِدْتُ لـــو نُسِـــخَ الضـــياءُ ظلامـــا
طلعـــتْ علـــيّ مـــع المشـــيبِ تشـــوقني شـــيخاً كمـــا كانـــت تشـــوقُ غلامـــا[٧٠]

وإن حسرته على شبابه لتلح عليه، فيصور أنوار عهد الشباب بجمار النار المتقدة، لكنها سرعان ما تخبو وتستحيل رماداً، فانظر تصويره صيرورة التحول المريع، من اتقاد واشتعال، كناية على قمة الامتلاء والفتوة والنشاط، إلى خمود وخمول وانطفاء، وهي حالة دائماً ما عكّرت صفو حياة الشاعر، وهو يقاسي مرارتها؛ ضعفاً وشكاية وانطفاءً. يقول:

فقُصـــارُ مجتمـــعِ الأصـــاحبِ فرقـــةٌ وجُمـــارُ أنـــوارِ الشـــبابِ رمـــادُ[٧١]

إن هذه الحرارة، حرارة معاناته، ليفيض بها مرجل تجربته، بتوظيف فني لثنائية الماء والنار، يشير بهما لدمع العين والكبد الحرى، إبرازاً للألم والحرقة، يقول:

وإنّـــي إذا مـــا شـــاقني لحمامـــةٍ رنـــينٌ وهـــزّتني لبارقـــةٍ ذكـــرى
لأجمـــعُ بـــين المـــاءِ والنـــارِ لوعـــةً فمـــنْ مقلـــةٍ ريّـــا ومـــن كبـــدٍ حـــرّى[٧٢]

٢. المعجمُ الحزين الشاكي الباكي:

إن من اللافت جداً كثرة شكوى الشاعر وبكائه في تجربة شيبه، وقد عزز هذا المنحى معجمُه الشجي الحزين الباكي، المسكون بدوال الشكوى والأنين، والبكاء والحسرة والخوف والقلق والوحدة والعجز والحنين، مما يصبغ تجربة الشيب لديه بميسم خاص، جعله بحق شاعراً شاكياً باكياً متوحداً مع نفسه، له عالمه الشعري والنفسي الخاص، يترجم إحساسه بالغربة والكربة.

إن من ينعم النظر في مفردات خطاب تجربة شيبه، يجد الشكوى تستوعب كثيراً من أبيات قصائده، ليس هذا فحسب، بل ليجعل من الشكوى مطلعاً شعرياً،

[٧٠]. الديوان ص١٤٦. انظر أيضاً ص١٦٤.
[٧١]. الديوان ص٢٣٢..
[٧٢]. الديوان ص١٤٨...

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

ومرتكزاً موضوعياً في قصائده، قلما نخطئه، وإنه في تجربته النفسية هذه ليلامس تجربة المتنبي في الشكوى:

كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافيا وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا

فهو يقول:

كفاني شكوى أنْ أرى المجدَ شاكيا وحسب الرزايا أن تراني باكيا[٧٣]

فهنا تبلغ الشكوى مداها، وتطبق على النفس، فيتولد عنها بكاء، لعله يشفي. والشاعر هنا وإن كان في معرض رثاء، لكن جوه النفسي المسكون بفجائع الدهر، ليجعل من هذا الرثاء رثاء لنفسه ولعمره ولشبابه.

وشكواه من الليالي وما تنحته فيه من تعاريج السنِّ، فإنها بحق لا توقره وهو ذو شيبة:

وأشكو لو شكوتُ إلى مصيخٍ لياليَ لا توقِّرُ من مشيبي
تمشي تارةً مشي السبنتى وآونةً تدِبُّ دبيبَ ذيبِ[٧٤]

أما أشد ما كان يشكو الشاعر منه هو كبره وشيخوخته، وإحساسه بالزمن، وأنه قد طعن في السنِّ، فأحيط به من كل جانب، فنعى نفسه، وبكى شبابه دماً، إنها حرقة الشاعر وتنهداته على فوات عمره، فأصبح لا حول له ولا قوة:

فآهٍ طويلاً ثمَّ آهٍ لِكِبْرةٍ بكيتُ على فقْدِ الشَّبابِ بها دما
وقد صَدِئتْ مرآةُ طرْفي ومِسْمعي فما أجِدُ الأشْياءَ كالعهْدِ فيهما

إنها مأساة! أن يبكي شيخ كبير، علام؟ على بلوغه سن الهرم، وفقده أجمل أيامه، فيزفر بالآهات المتتابعة الطويلة، (فآهٍ طويلاً، ثم آهٍ لكبرةٍ) على التغير والتحول في العمق، في التعاطي مع الأشياء سمعاً وبصراً، فقد صدئت مرآة حواسه التي يرى من خلالها الحياة، ليس هذا فحسب، فخلف هذه الكبرة، علل وأمراض، تلبست بالشاعر، فرمت به في يم الشكايا:

[٧٣] . الديوان ص١٩٨...
[٧٤] . الديوان ص٩٣،٩٤....

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

فقلتُ وقد خلّفْتُ خمسينَ حِجّةً ورائي لقد أعجلتُ طيَّ المراحلِ
أنُوءُ بعِبْءِ السقْمِ بينَ حُشاشةٍ تجودُ وجسمٍ قد تعرَّقَ ناحلِ
وأسْبحُ في بحْرِ الشّكاةِ لعلني سأعلقُ يوماً من نجاةٍ بساحلِ

إن الشاعر لا يخفي بكاءه من حاله، فقد طفح الكيل، فشكواه مقرونة ببكائه، يبكي شبابه ومعاهده، وفراق خلانه:

ولمْ أدرِ ما أبكي أرسمَ شيبةٍ عفا أمْ مصيفاً من سليمى ومربعا
وأوجعُ توديعِ الأحبّةِ فرقةً شبابٌ على رغمِ الأحبّةِ ودعا[٧٥]

٣. الاتكاء على الأساليب الإنشائية

من استفهام، وتمنٍ، ونداء وكذا صيغة التوجع:

ذلكم أن إشكالية الزمن وفعله في الشاعر، اغتراباً نفسياً مريعاً، إضافة إلى فواعل الفقد، والاغتراب المكاني، قد أنتج تشكلاً أسلوبياً، يتجه نحو البحث عن الذات والأنيس والعوض؛ فالشاعر في تيهٍ في أمره وحاله ومصيره؛ لذا لا غرو أن نجده يفزع إلى ركوب مطي الأسلوب الإنشائي الخارج عن دلالاته الظاهرة، إلى دلالات ذات عمق نفسي كالحسرة والرغبة في استعادة الماضي، وتحقيق أحلام اليقظة.

لعل أسلوب التوجع والتفجع هنا يرمي بسهم وافر؛ إذ أكثر منه الشاعر، فيطلق الآهات تلو الآهات، وكأننا أمام مريض يتألم ويتوجع مما ألمَّ به، ولا يملك سوى التأوه بألم وحسرة. فهو لما أحس بكبرة احتوته، توجع منها طويلاً، وبكى على فقد شبابه دماً:

فآهٍ طويلاً ثمَّ آهٍ لِكِبْرةٍ بكيتُ على فقْدِ الشَّبابِ بها دما

وتمتد تأوهاته وآهاته حينما يحال بينه وبين مسقط رأسه، فيكتوي بغربة البعد والفراق، كما اكتوى بغربة الشيب، إنها نفس تذوب كمداً وأسى، وتتقطع ألماً، وتذهب حسراتٍ، فحينها لا تملك سوى ذرف الدموع الغوالي.

[٧٥] .الديوان ص٥٦.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

آهٍ مـــن غربـــةٍ تُرقْـــرقُ بثّـــاً آهٍ مـــن رحلـــةٍ تطـــولُ نواهـــا
آهٍ مـــن فرقـــةٍ لغـــيرِ تـــلاقٍ آهٍ مـــن دارٍ لا يجيـــبُ صـــداها
لســـتُ أدري ومـــدمعُ المـــزنِ رطـــبٌ أبكاهـــا صـــبابةً أم ســـقاها
فتعـــالي يـــا عـــينُ نبـــكِ عليهـــا مـــن حيـــاةٍ إن كـــان يغـــني بُكاهـــا
وشـــبابٍ قـــد فـــاتَ إلا تناســـيه ونفـــسٍ لم يبـــقَ إلا شـــجاها[٧٦]

وحينها يبحث الشاعر عن منفذ نور في نفقه النفسي المظلم، فيعللها بالأماني، وإن كان شرابُ الأماني في نظره سرابا، لكن الشاعر يسلك بها البحث عن العوض عن مفقوده، أياً كان، فهو لما أحس بعجزه الجنسي وهو يخاطب فتاة صغيرة يتمنى وصالها، آلمه عجزه بسبب كبر سنه، فتمنى أن لو يرجع فتى شاباً ابن أربعة عشر ربيعاً، يحقق رجولته، ويشبع لذته، وهيهات! وهنا، يتعالق أسلوب الاستفهام بدلالة التمني بأسلوب التمني الدال عليه بصيغته " ليت"، تعميقاُ لرغبته الجامحة في تحقيق الذات المنتكسة المنكسرة هذه اللحظة بالحرج والعجز والضعف.

وأقْـــرئْ عفـــيراء الســـلامَ وقـــلْ لهـــا ألا هـــل أرى ذاك السَّـــهى قمـــراً تمّـــا
وهـــل يتثنّـــى ذلـــك الغصْـــنُ نضْـــرةً بجزْعـــي وهـــلْ ألْـــوي معاطفَـــه ضـــمّا
ومـــنْ لـــي بـــذاك الخِشْـــفِ مـــن متقـــنّصٍ فآكلُـــه عضـــاً وأشْـــربُه لثْمـــا
ودونَ الصِّـــبى إحـــدى وخمســـون حِجّـــةً كـــأنّي وقـــد ولّـــتْ أُريـــتُ بهـــا حُلْمـــا
فيـــا ليـــتَ طـــيرَ السّـــعْدِ يسْـــنحُ بـــالمُنى فـــأحْظى بهـــا ســـهْماً وأبْـــأى بهـــا قسْـــما
ويـــا ليـــتني كنـــتُ ابـــن عشـــرٍ وأربـــعٍ فلـــمْ أدْعُهـــا بنتـــاً ولمْ تـــدْعُني عمّـــا

على أنا لا نغفل أسلوب الاستفهام الذي أناط به الشاعر رسالة البحث عن المآل والمصير، فتساؤلاته كلها تعمق أزمة نفسية أو قلقاُ وخوفاُ من الموت والمصير، وأكثر ما يتجلى في رثائه أصحابه، كما في قوله:

حتّـــامَ أنـــدبُ صـــاحباً وشـــبيبةً فتفـــيضُ عـــينٌ أو يحـــنُّ فـــؤادُ[٧٧]

[٧٦] .الديوان ص٣٦٥..
[٧٧] .الديوان ص٢٣٢..

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

وعلى لسان الجبل يقول:

فحتى متى أبقى ويظعن صاحبٌ أودِّعُ منه راحلاً غير آيبِ
وحتى متى أرعى الكواكبَ ساهراً فمن طالعٍ أخرى الليالي وغاربِ
فرحماك يا مولاي دعوة ضارعٍ يمدُّ إلى نعماك راحةَ راغبِ[٧٨]

وهي استفهامات خرجت إلى معنى الحيرة والتيه والقلق، أو إلى معنى نفسي غائر في ذات الشاعر، وهو خوفه من لحظة الرحيل.

ومن أسلوب النداء الممتزج باللذعة والأسى، وبالتمنيات مخاطباً زمنه الذهبي:

فيا شرْخَ الشبابِ ألا للقاءٌ يُلَلُّ به على يأسٍ أُوامُ
ويا ظلَّ الشبابِ وكنتَ تندى على أفياءِ سرْحتِك السلامُ[٧٩]

٤. هيمنة صيغ الزمن الماضي:

ونظن ظناً أن هذه الهيمنة ذات أبعاد نفسية ومعنوية، فالزمن الماضي، زمن الشباب، يكاد يفرض سيطرته على عالم الشاعر الشعوري والنفسي، وهو في حال الشيبة، فيعزف على الذكرى، وهي حلمه الذي يراوده، ويتمنى تحقيقه وعودته، وإن بطريق الطيف والمعراج بالروح. وهنا، يأتي الشاعر بذكرياته الخوالي أيام شبابه، ولهوه، وأنسه، بين أحضان الطبيعة، وفي مجالس الإخوان حيث هناء العيش. لكن هذا الشريط الذي يستعرضه الشاعر خيالاً وذكرى، سرعان ما يتبدد، ويتلاشى أمام الزمن الحاضر وكأنه لم يكن. فنلاحظ إكثار الشاعر من صيغ الزمن الماضي، والفعل المضارع المنفي بلم، بمعنى الماضي، وهو أمر يلفت نظر المتتبع لشعره، ومثلما أكد غير باحث هذه الظاهرة الأسلوبية في أن الحضور المكثف للماضي في شعر ابن خفاجة أهم ما يميزه عن بقية الشعراء[٨٠].

فالزمن الماضي بالنسبة للشاعر زمن عاطر، غالية لياليه، لكنه تقضى بسرعة، ولإحساسه بالزمن، يرى أن فترته قصيرة، حتى كأنه لم يستمتع به، ولم يأخذ فرصته الكافية، وكأنه لمْ يأنسْ إلى اللهوِ ليلةً، وللتعبير عن هذا الانقضاء السريع

[٧٨] . الديوان ص٢١٧...
[٧٩] . الديوان ص٦٥...
[٨٠] الغربة والحنين، ص٢١١.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

وعدم الشبع منه يستعمل الشاعر عبارة " كأني لم " أو نحوها، وهذه معادلة قاسية على نفس الشاعر، نجده يتحسر على سرعة انقضاء زمن المحاسن، ومن أنه لم يعب فيه عباً كافيا، على الرغم من أنه كما حكى عنه ابن خاقان كان يطلق عنان نفسه نحو المجون. فلنصغ إليه في قوله:

زمـــانُ تـــولَّى بالمحاســـنِ عـــاطرٌ تكـــادُ لياليـــه تســـيلُ غواليـــا
تقضَّـــى وأبْقـــى بـــينَ جـــنبيَّ لوْعـــةً أنـــاجي لهـــا أخـــرى الليـــالي البواكيـــا
كـــأنِّي لمْ آنـــسْ إلى اللـــهوِ ليلـــةً ولمْ أتصـــفّحْ صـــفحةَ الـــدَّهْرِ راضـــيا[٨١]

إلى أن يقول:

فكـم شـاقني مـن منظـرٍ فيـك رائـقٍ هـززْتُ مـن مِعْطـفِ السـكرِ صـاحيا
وضـاحكني مـن أُقْحـوانٍ ومبسـمٍ فلـم أدرِ أيٌّ كـان ثـمَّ الأقاحيـا
ودون حُلـى تلـك الشـبيبةِ شـيبةٌ حليـتُ بهـا رغْمـاً ولم أكُ حاليـا[٨٢]

ونجده في موضع آخر يقول:

ألا بـان عـيشٌ كـان بنـدى غضـارةً فيـا ليـت ذاك العـيشَ لـو كـان ينكصُ
وعـزَّ شـبابٌ كـان قـد هـان برهـةً ألا إنهـا الأعـلاق تغلـو وتـرخصُ
فمـن مبلـغٌ تلـك الليـالي تحيـةً يعـم بهـا طـوراً وطـوراً يخصـصُ
علـى حـين لا ذاك الغمـام يظلـني ولا بـرد تلـك الـريح يسـري فـيخلصُ
وقـد طلعـت للشـيبِ بـيضٌ كواكـبُ أقلـب فيهـا نـاظري أتحـرّصُ
كـأنْ لم أقبّـلْ صـفحة الشـمسِ ليلـةً ولم ينتعـل لـي دونهـا الـنجم أخمـصُ[٨٣]

فانظر كيف يؤثث الزمن الماضي فضاء هذا النص، ثم ترى الشاعر يئن لسرعة انقضائه، ومن أنه لم يقض أوطاره بعد، أو كأنه لم يفعل شيئاً.

[٨١] . الديوان ص١٩٩.
[٨٢] . الديوان ص١٩٩.
[٨٣] . الديوان ص١٩٩. انظر أيضاً ص٢٥٨. ص٨٥.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

الخاتمة :

تعد تجربة الشيب عموماً تجربة إنسانية، يلج عالمها كثير من الناس ممن مد في عمره، لكنها أخذت بعداً شخصياً وذاتيا عند ابن خفاجة، بتصويره إياها بدقة ورصد، منذ أن وخطه الشيب إلى انتظاره أجله. إنها أشبه بسيرة ذاتية للشاعر أو قصة يسرد تفاصيلها، ويسجل مجرياتها في فترة حياته الثانية، وهي الأطول.

حاولنا من خلال هذه الدراسة رصد تجليات تجربته هذه، في شعره، تمحورت في :

١) تجليات موضوعية؛ إذ كشفت التجربة عن أربعة انشغالات كانت تسكن نفس الشاعر، صدمته من ظهور الشيب، إلى بكائه شبابه وحنينه إليه، إلى شكواه في كبره وشيخوخته، انتهاءً بتأملاته واعتباره وزهده.

٢) تجليات أسلوبية: توزعت في أربع دوائر؛ في المفارقة الفنية والرمز، وفي المعجم الشعري الشاكي الباكي الحزين وفي اعتماد الأساليب الإنشائية من استفهام، وتمنٍ، ونداء ممتزج بندبة وتفجع وتوجع. ورابعها في هيمنة صيغ الزمن الماضي.

٣) بينت تجربة الشيب موقف جنان الأندلس من أمرين اثنين غاية في الأهمية والخطورة وهما :

ـ موقفه من الطبيعة، فهو شاعرها الأول، لكنه تحول عنها في شعره لا ليصفها، ويتغنى بها، ولكن ليتخذ منها موقف اعتبار ونظر، ويربطها بمسائل الفناء والموت والمصير.

ـ موقفه المتأزم من الموت والرحيل، فقد وجدنا الشاعر يعيش فرقا وفزعاً، أدخله حالة من التيه والبحث عن الخلاص، وإنا لنزعم أن مرجع ذلك ربما يكون استشعاره كثرة تصابيه وقت شبابه، وتأنيبه ضميره على ذلك، فكثيراً ما يقرع سن الندم، ويخاف ألا تقبل منه توبة.

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

المصادر والمراجع:

١) تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين ـ د. إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠١م ص١٦٤.

٢) تجربة الغربة والحنين في شعر ابن خفاجة، الأندلسي، فتيحة دخموش، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري ـ قسنطينة، الجزائر، العام الجامعي ٢٠٠٤/٢٠٠٥م.

٣) خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي " قصيدة الجبل أنموذجاً"، راشد عيسى، ونضال الشمالي: مجلة جامعة النجاح للأبحاث والعلوم الانسانية، مجلد ٢٥(٨)، ٢٠١١.

٤) ديوان ابن خفاجة، تحقيق الدكتور سيد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط٢.

٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م،

٦) رايات المبرزين وغايات المميزين" لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (٦١٠ ـ ٦٨٥هـ). حققه وعلق عليه الدكتور محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٧م.

٧) الشهاب في الشيب والشباب، تأليف السيد الشريف المرتضى أبي القاسم علي بن الشريف، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط١، ١٣٠٢هـ.

٨) الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، مرتب ترتيباً ألفبائيا بحسب أوائل الحروف، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق د. محمد محمد تامر، دار الحديث/ القاهرة، ط١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٩) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، د. فاطمة طحطح، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٣م.

١٠) في الأدب الأندلسي، د. محمد رضوان الداية، دار الفكر بدمشق، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م .

-ISSN : 2410-1818
-ISSN : 2410-521X

١١) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تأليف أبي الفتح بن عبيد الله القيسي الإشبيلي الشهير بابن خاقان ت ٥٢٩هـ، حققه وعلق عليه الدكتور حسين يوسف خربوش، عالم الكتب الحديث، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
١٢) المختار من الشعر الأندلسي، للدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر - دمشق، ط٣، ١٤١٢هـ -/ ١٩٩٢م.
١٣) المغرب في حلى مغرب، لابن سعيد المغربي، حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، ط٤.
١٤) النص الشعري وآليات القراءة، د. فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٦م.
١٥) النقد الأدبي الحديث .محمد غنيمي هلال، بيروت، دار العودة،١٩٨٢م.